# الفصل الحادى والعشرون:

# ابراهيم باشا في فلسطين

عبد القادر ياسين

تركت الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) مصر نهباً لصراعات محتدمة، بين قوى ثلاث: الانجليز، والمماليك، والقوات العثمانية، إلى أن حسم هذه الصراعات أعيان مصر، بالطلب إلى قائد القوات الألبانية، محمد على، أن يقود البلاد. لكن أعيان مصر أصروا على موقفهم، فكان لهم ما أرادوا، حين رضخ سليم لطلبهم. وهكذا غدت مصر تحت حكم من جمع بين عبقرية الزعيم السياسي، ورأى القائد العسكرى رغم أنه كان مجرد تاجر بيع أمي(١).

توالت الأحداث متسارعة، ونجحت المقاومة الشعبية في رشيد في إنزال الهزيمة بحملة فريزر الانجليزى، ١٨٠٧، فيما تخلَّص محمد على من خصومه المماليك في مذبحة القلعة (١٨١١/٣/١١) (*)، ما أفسح المجال أمام محمد على من أجل تحقيق أحلامه، مستخدماً السيف، قبل استقوائه بالتحديث، عبر البعثات التعليمية التي أوفدها إلى فرنسا، التي أرسلت خبراءها إلى مصر في شتى المجالات، دون أن ينسى محمد على مهمة تأسيس جيش قوي، قادر على تحقيق بناء دولة قوية، مترامية الأطراف. مع اطراد ضعف الدولة العثمانية.

بعد طول إلحاح من السلطان العثماني، سير محمد على إبنه طوسون

علـى رأس حملـة عسـكرية إلـى الحجـاز، ليخضـع الوهـابيين هنـاك سـنة ١٨١١. وسرعان ما أخلى طوسون موقعه لشقيقه إبراهيم الذي مدّ نشاطه العسكري إلى نجد، فاستولى على عاصمة السعوديين الوهابيين، الدرعية، فـي أغسـطس / آب ١٨١٨. وإن أعـاد السـعوديين تكـوين دولـتهم الثانيـة (١٨٢٤)، فـي نجـد، و بقيـت الحجـاز فـي يـد محمـد علـى، الـذي نجـح فـي فرض الجزية على إمام اليمن [٢].

معـروف بـأن محمـد علـي أراد مـن حملتـه علـى الوهـابيين (١٨١١ - ١٨١٩) تحقيـق جملـة من الأغراض، فـأولاً ثمـة التمكين لسلطته، ورفـع شـأنه وشـأن مصـر، و إعـلاء مكانتهـا، بعـد أن أخفقـت كـل الحمـلات العثمانيـة، وثانيـاً التخلص من طوائف الجنود الأرنـاؤوط والـولاة، الذين استمرأوا التمرد، وثالثًا فإن هذه الحملة أطلقت يد حكومـة محمـد علـي فـي فرض ما تشاء من الضرائب و الإتاوات [٣].

عمد السلطان العثماني، محمود، إلى ترقية ابراهيم باشا بثلاثة ذيول، ربما ليوغر صدر أبيه عليه، بعد أن غدا الابن أعلـى رتبـة مـن أبيـه. فيمـا رفض محمود منح محمد علي حكماً دائماً في سوريا. حوَّل الأخير بصـره جنوباً، حيث السودان الغنـي بخيراتـه، وأقـام فيـه المماليك، خصـوم محمـد علي، دولة لهم في دنقلة شاغبوا منها على التجارة النهرية. وعـدا الـدوافع السياسية والتجارية التي حفت بتطلع محمد علـى إلـى السـودان، ثمـة دافـع إرضـاء ضباط قواته الألبانية بالمناصب هناك. وفـي ١٨٢١ أرسـل محمـد علـى حملة إلـى السـودان، بقيـادة ابنـه إسـماعيل، أتبعهـا بعمليتين أُخـريين، أولاهما بقيادة ابراهيم، و الثانية بقيادة محمد زوج ابنـة محمـد علـى، و إن

خيَّب فتح السودان آمال محمد علي، أولاً لفقر مناجم الذهب هناك، وثانياً لقلة عدد السودانيين الذين التحقوا بجيشه [٤].

في سنة ١٨٢٥، طلب السلطان محمود من محمد علي الإجهاز على تمرد في اليونان، وتمكنت تلك القوات من سحق التمرد، بعد سنتين. إلا أن الدول الأوربية تكالبت على العثمانيين و المصريين، فدمرت أسطوليهما، في معركة نقارين البحرية (١٨٢٧/١٠/٢٠). وبعد خمس سنوات غدت اليونان دولة مستقلة [٥].

**من التوجه إلى الفعل:**

كافأ السلطان العثماني واليه على مصر، بمنحه جزيرة كريت، لكن محمد علي ظل يرنو إلى حكم سوريا. مادفعه إلى إرسال ابنه، ابراهيم باشا، على رأس حملة عسكرية، لانتزاع سوريا من أيدي العثمانيين. ويعتبر مؤرخ مصري معاصر حملة محمد على سوريا دفاعية و هجومية، في آن، لأن الأستانة ظلّت تسعى لاسترداد مركزها في مصر، كما يستحيل الاطمئنان إلى استقلال مصر بدون تأمين الحدود السورية، لأن حدود مصر " ليست في السويس، بل في طوروس "، على حد تعبير أحد أهم مستشاري محمد على الفرنسيين، كلوت بك. و الحملة على سوريا هجومية، أيضاً، لغرض التوسع في الفتح و السلطان، وصولاً إلى إنشاء دولة عربية مستقلة في مصر، تضم إليها البلاد العربية في إفريقيا (السودان)، وفي آسيا (الجزيرة العربية، وسوريا). إلى ذلك ثمة أغراض اقتصادية لمحمد علي من حملته على سوريا، لعلّ في مقدمتها استغلال مواردها من الخشب، والفحم، والنحاس، فضلاً عن تطلُّع محمد على إلى

تجنيد السوريين في جيشه. فيما كانت تركيا قد خرجت مضعضعة من حربيها مع اليونان، وروسيا (١٨٢٩)، ناهيك عن كراهية السوريين للحكم العثماني. دون أن ينفي هذا كله وجود أسباب مباشرة، أقل أهمية، مثل تدفُّق الهاربين المصريين من السُخرة، و الضرائب و الجندية إلى سوريا، حتى قُدّر عددهم بستة آلاف والذين امتنع والي صيدا عبد الله باشا عن إعادتهم إلى مصر [٦].

**حملة الشام:**

تحرَّك ابراهيم باشا على رأس حملته العسكرية، في اتجاه الشام يوم ٢٩ أكتوبر / تشرين الأول ١٨٣١، و اندحرت القوات العثمانية سريعاً أمام هذه الحملة إلى داخل الأناضول، واحتلت قوات ابراهيم باشا مدن غزة، ويافا، وحيفا، والقدس، ومنطقة الجليل بدون مقاومة. ووالى الزعماء المحليون ابراهيم باشا بإيعاز من حليفه حاكم جبل لبنان الأمير بشير الشهابي الثاني. فأبقى القائد المصري الشيخ حسين عبد الهادي حاكماً لمنطقة نابلس، وعيَّن أبناء الشيخ قاسم الأحمد الثلاثة حكاماً: يوسف (القدس)، محمد (نابلس)، وعثمان (يافا). أما عكا فامتنعت على قوات ابراهيم باشا بفعل تحصيناتها القوية. وقد قاد دفاعاتها عبد الله باشا، منذ ١٨٣١/١١/٢٦. وبعد حصار دام زهاء ستة أشهر، استسلمت عكا، في ١٨٣٢/٥/٢٨ وتبعتها دمشق (١٨٣٢/٦/١٤). واستسلمت مدن حماه، وحلب (٧/١٧) / وأنطاكية. وانتصر ابراهيم على العثمانيين في موقعه بيلان (٧/٣٠)، ثم في قونية بالأناضول (١٢/٢١)، إلا أن الدول الأوربية تدخلت لوقف تقدُّم قوات ابراهيم، فكان صلح كوتاهية (١٨٣٣/٤/٨)،

تاركاً لمحمد علي الاحتفاظ بحكم مصر، وراثياً وبلاد الشام و أضنة في حياته (٧).

**الأصداء:**

أثارت انتصارات الجيش المصرى قلق الدول الأوربية مخافة أن يتمكن محمد علي من إسقاط السلطنة العثمانية، وتأسيس دولة قوية، تُهدد أوربا نفسها. لذا عرضت روسيا على السلطان العثماني استعدادها للدفاع عن سلطنته، ما أثار مخاوف كل من فرنسا وانجلترا ودفعهما لوقف تقدُّم الجيش المصري حتى تفقد روسيا ذريعتها للتدخل العسكري. وتدخلت فرنسا لإقناع صديقها محمد علي بضرورة قبول تسوية مع السلطان العثماني، ولكن دون جدوى. ما دفع السلطان محمود إلى قبول حماية عسكرية روسية. إلى أن عقد صلح كوتاهية، على بعد خمسين فرسخًا من العاصمة العثمانية، استانبول. لكن السلطان ظل ينتظر الفرصة المواتية للانقضاض على جيش محمد علي، واتفاق كوتاهية؛ فعقد معاهدة هنكار أسكله (١٨٣٣/٧/٨) للدفاع المشترك مع روسيا، وإطلاق يد قواتها وأسطولها في الأراضي والمياه التركية (٨).

**الإنجازات:**

استعصى على إبراهيم باشا إقامة حكومة مركزية في سوريا، في وجود طوائف ألفت الحكم الذاتي، وتجَّار، وكبار ملاَّك استاؤوا من التدخل المصري. مع هذا كله، فإن حقبة ابراهيم في سوريا (١٨٣١ - ١٨٤٠)، شهدت إنجازات لافتة. حيث أضفى ابراهيم باشا سمات عصرية على التنظيم الإدراى وأصلح نظام الضرائب والتعليم ووسَّع

التجارة مع أوربا، وحسَّنها.

في مجال الإدارة، نصَّب محمد على صهره محمد شريف باشا حاكمًا عامًا مدنيًا، فيما مثَّل ابراهيم باشا والدة في الإشراف على حكم الشام، بصفته القائد العام للجيش. وقُسمت الشام إلى متسلميات عدة (حلب / طرابلس / أضنة وطرطوس / صيدا والقدس / نابلس / غزة / يافا)، على رأس كل منها متسلم، ينوب عن محمد شريف باشا في إدارة متسلمية. فيما ترك للأمير بشير حكم جبل لبنان. واستُحدِثت الدواوين، وشارك فيها الأهالي، ليُسهم في حكم بلادهم (٩).

عني إبراهيم بإقرار الأمن والنظام في ربوع سوريا، وأمَّن الطرق، ومنع اعتداء البدو على غلات الأهالى وأملاكهم وأرواحهم، متخذًا من أنطاكية مقرًا عامًا له بسبب موقعها الاستراتيجي وقربها من التخوم الشمالية، ولقب محمد شريف باشا " حكمدار عربستان ". وجعل سيف باشا الفرنساوي على إيالة صيدا وعكا. وعيَّن اسماعيل بك، سنة ١٨٣٨، حاكمًا لولاية حلب، ومحمود نامي بك، أحد خريجي البعثات المصرية، متسلمًا لبيروت. وجعل على إدارة الشؤون المالية حنابك بحري، أحد الأعيان السوريين، الأمر الذي لم يكن مألوفًا في العهد العثماني، علمًا بأن كل بلدة أو مدينة، يزيد عدد سكانها على عشرين ألفًا، كانت تنتخب " ديوان المشورة "، من بين نبلاء البلد، وتجارها. ويختص هذا الديوان في النظر في مصالح كل بلدة، ومطلوبات الميري، وإلى هذا الديوان تُرفع بعض الدعاوي، للفصل فيها، وأبطلت وحدة الإدارة ومركزية الحكم سلطة الأُمراء، والرؤساء والإقطاعيين، وأضعفت شوكتهم. وضرب

ابراهيم باشا على أيدى الأشقياء، وقُطاع الطرق وبسط رواق الأمن في البلاد ونظم طرق الجبايه. ونشط ابراهيم التجارة والزراعه فعمم تربيه دودة القز (الحرير)، وأكثر من غرس أشجار التوت لهذا الغرض. فيما غرس في ضواحي أنطاكية أشجار الزيتون، وازدهرت زراعة العنب. وعني باستخراج بعض المعادن وراجت التجارة، وعهدت مصر إلى سد العجز في الميزان التجاري السوري من ماليتها، " غير أن جهل الحكام بكيفية تطبيق القوانين، وفطرتهم الاستبدادية، وعدم وجود مراقبة فعالة على أعمالهم، وعدم مراعاة تقاليد البلاد، وعاداتها وكثرة الإضطرابات في البلاد، حالت دون بلوغ الغاية التي وضعت تلك القوانين من أجلها... [رغم] إطلاق الحرية الدينية، ونشر روح الديمقراطية.. وتأليف مجالس مشورة تُمثل الشعب، بعض التمثيل، ولها حق النظر في الشؤون المحلية، بعد أن كان النظر في جميع الشؤون منوطًا بحكام مستبدين (١٠).

**السنوات الحرجة:**

ما أن حطَّت القوات المصرية في سوريا، حتى بادر ابراهيم باشا في إعفاء السوريين من التجنيد وتخفيض الضرائب المفروضه عليهم. لكنه مالبث، بدايه سنه ١٨٣٤، أن نفَّذ تعليمات والدة باحتكار الحرير وفرض ضريبة الرؤوس على الذكور من سن الرابعة عشر (مابين ١٥ - ٥٠٠ قرش) وتجنيد الأهالى لمده مفتوحة مع نزع سلاحهم، الذي كانوا يدفعون به غارات البدو، ما تسبب في تراكم سخط السوريين، فركب موجة هذا السخط الزعماء المحليون، الذين أضرت الإصلاحات المصرية المبكرة بأطماعهم الذاتية الضيقة، ووضعت حدًا لامتيازاتهم، فيما استثمر

الانجليز، والعثمانيون السخط الشعبي السوري [١١].

اندلعت الأعمال الثورية في وادي الأردن، في إبريل/ نيسان ١٨٣٤، وأعلن الثائرون مطالبهم في الكف عن تجنيدهم، ووقف سحب السلاح منهم، وامتدت الأعمال الثورية إلى نابلس. ففي القدس اندلعت الأعمال الثورية بدءًا من ١٨٣٤/٥/١٨ بنحو عشرين ألفًا من البدو والفلاحين، يتقدمهم مشايخ القيسية واليمنية [*]، على حد سواء، من مناطق نابلس والقدس والخليل. واندفع الثائرون إلى القدس، يتصدرهم شيخ قبيلة الفواغرة في منطقة بيت لحم، صبح شوكة. فيما تصدَّر الثائرين من منطقة نابلس، حاكمها، الشيخ قاسم الأحمد، وعلى طريق القدس - يافا، رأس عشيرة أبو غوش، مصطفى أبو غوش، حيث هاجموا الحاميات المصرية بين القدس ويافا، والخليل، وألحقوا الهزيمة بتلك الحاميات [١٢].

على أن ابراهيم باشا كسر على الثائرين، من يافا في يونيو/ حزيران ١٨٣٤، عند قرية العنب، وهزمهم لكنهم أعادوا الكرة عند بلدة بيت جالا، فانتصر ابراهيم عليهم، قبل أن يعمد إلى التفريق بين القبائل، ورضخ أولاد مصطفى أبو غوش، مقابل الإفراج عن والدهم السجين في عكا، وعيَّن ابراهيم أحد أبناء مصطفى متسلمًا للقدس. فيما أرهقت قوات ابراهيم باشا، وقاربت ذخيرتها على النفاذ، فقبل ابراهيم مطالب الثائرين في رفع الفِردة، وإلغاء التجنيد، مقابل دفع البدل، مع الاكتفاء بالضرائب القديمة، وقلَّد ابراهيم باشا الشيخ قاسم الأحمد حكم المنطقة، فيما عهد إلى الأمير بشير بقمع انتفاضة أهالي صفد، ففعل [١٣].

أخطأ الثائرون إذ ظنوا ابراهيم وهناً، فاستمروا في مناوشته لكنه ارتد

عليهم واشتبك معهم عند قريتي زيتا ودير الغصون أواخر يونيو/ حزيران، وأفلت الشيخ قاسم الأحمد، والشيخ عيسى البرقاوي إلى الخليل. ورفض ابراهيم باشا عرضًا من الشيخ قاسم بالموالاة، مقابل إعفاء أهالي نابلس من الجندية. وعند الخليل هُزمت قوات ابراهيم باشا الثائرين (١٨٣٤/٧/٢٤)، وأباح ابراهيم مدينة الخليل لجنوده. فيما أفلت شيخ الثائرين إلى الكرك، فلاحقهم، وحاصرها، إلى أن سقطت بين يديه في أغسطس / آب ١٨٣٤. وكان محمد علي قد أتى إلى يافا، على رأس نجدة عسكرية كبيرة، لتوفير شروط النصر لقواته. وأنذر ابراهيم باشا البدو إن هم آووا شيوخ الثائرين، ليسلموهم له، وقتلهم [**]. وأحلَّ إبراهيم أبناء الشيوخ المعزولين في مواقع آبائهم، وحمل كل منهم لقب " ناطور " على أن هذا اللقب سرعان ما
أخلى مكانه للقب " المختار ". وأعاد ابراهيم الفِردة، وجمع السلاح من الأهالي [١٤].

كما قمع ابراهيم باشا ثورات أخرى في أنحاء متفرقة من الشام مثل جبل النصيرية، وحوران، وجبل الدروز، وبعدها تم فصل حلب عن دمشق وجعل ابراهيم حلب مقراً لحاكم آخر. فقد تراجع محمد شريف باشا عن تجنيد أهالي الشام بعد أن هاجت خواطرهم وأت جمع شريف السلاح من الأهالى. فتوالت الأعمال الثورية في طرابلس، وعكار، وصافيتا، والحصن، وحلب، وأنطاكية، وبعلبك، وبيروت، لكنها أُخمدت جميعًا بالقوة المسلحة. على أن أشد الأعمال الثورية كانت تلك التي نشبت في النصيرية، شرقي اللاذقية، في أكتوبر / تشرين الأول ١٨٣٤. وأغرى

ابراهيم الموازنة بأنه سيكتفي بتجريد الدروز من السلاح، لكنه ما أنهي مهمته هذه، حتى استدار إلى الموارنة، فخلَّعهم سلاحهم، وعمم التجنيد. وأعفى ابراهيم دروز حوران، في نوفمبر / تشرين الثاني ١٨٣٧. وتمكن دروز حوران من إلحاق الهزيمة بحملتين عسكريتين مصريتين، قبل أن تهزمهم الحملة الثالثة، في أغسطس / آب ١٨٣٨، ولكن بعد أن كانت شرارة الثورة قد انتقلت إلى داري اليتيم، بقيادة شبلي العريان. على أن هيبة الجيش المصري قد اهتزت، فيما أوغرت القسوة في قمع تلك الثورات ضد السوريين على ابراهيم باشا، وحملته(١٥).

**الهجوم العثماني المضاد:**

أحس العثمانيون بأنهم استكملوا استعداداتهم العسكرية لمهاجمة ابراهيم باشا، فيما كانت هذة القوات قد ضعف موقفها، باطراد على النحو المبيَّن أعلاه، فأخذ العثمانيون لاسترداد هيبتهم ليس في سوريا فحسب، بل ينتزعوا مصر من محمد علي، أيضًا. فيما استمر السلطان العثماني، محمود، في مفاوضة محمد علي، لتسوية ما بينهما من خلافات، دون جدوى، بل إن محمد علي أبلغ وكلاء الدول الأجنبية في مصر (مايو / أيار ١٨٣٧) عزمه إعلان استقلاله عن الباب العالي. فحذرته هذه الدول من مغبة هذا الإعلان، على غرار ما فعلت الدول نفسها، قبل أربع سنوات. في الوقت الذي دأب فيه سفير انجلترا في استانبول، لورد نونسونبي، على تحريض السلطان ضد محمد علي. وعقد انجلترا معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية، تضمنت شرطًا يلغي الاحتكار في جميع أنحاء السلطنة العثمانية، بما فيها مصر، بما يعني أن محمد علي هو

المقصود بهذا الإلغاء. وقد وافقت فرنسا على هذه المعاهدة [١٦].

هكذا أصبح ميدان المعركة مهيأ تماماً. فاحتشدت طلائع الجيش العثماني، في نصيبين وحولها على الحدود التركية - السورية، قبل أن تندفع مجتازة الحدود، لكن القوات المصرية هزمتهم، في موقعه نصيبين (١٨٣٩/٦/٢٤) [١٧].

أثار الانتصار المصري مخاوف أوربا، وتباينت مواقف الدول الأوروبية تبعاً لتباين أطماعها، فانتهزت روسيا الفرصة لبسط حمايتها الفعلية على تركيا، فيما ظلت فرنسا على تأييدها لمحمد علي، أما انجلترا فهاجمته بعداء، واستمرت في تأليب الدول الأخرى عليه، بهدف إضعاف الدولة المصرية حتى لا تعترض طريق انجلترا إلى الهند وحتى تُمهد انجلترا لاحتلال مصر لاحقًا وليس حباً في العثمانيين. لذا كانت انجلترا قوام المؤامرة على محمد علي باشا. أما النمسا فحال وزيرها الأكبر الداهية مترنيج إلى تعزيز مكانة السلطنة العثمانية، أولاً، ليفقد روسيا ذريعة التدخل في شؤون السلطنة، وثانيًا لأن مترنيخ ضد الثورات القومية، من حيث المبدأ. فيما رمت روسيا إلى إتقاء شرقي أوربا، ناهيك عن كراهية ملكها لفرنسا، صديقة محمد علي. لذا بادر مترنيخ، فتقدمت الدول الخمس - عدا فرنسا - بمذكرة إلى الباب العالي، في ١٨٣٩/٧/٢٧، طالبت فيها بعدم البت في أي شأن مع محمد علي دون الرجوع إلى الدول الخمس، فيما رفضت فرنسا اقتراحًا انجليزيًا يقضي بأن يكتفي محمد علي بالولاية على مصر، وولاية عكا، دون مدينتها، فبادرت الدول الخمس إلى إبرام " معاهدة لندن " الشهيرة،

(١٨٤٠/٧/١٥)، وبموجبها خوِّل محمد علي على حكم مصر، وراثيًا، وولاية عكا مدى حياته. وإذا لم يوافق، خلال عشرة أيام، سيحرم من ولاية عكا، وبعد عشرة أيام أخرى يحرمه السلطان حتى من حكم مصر. أما إذا قبل فيدفع جزية سنوية للباب العالي، وتُلحق مصر وولاية عكا بالسلطنة العثمانية، وإذا رفض محمد علي، استخدم الحلفاء القوة لتنفيذ مذكرتهم، وحماية عرش السلطان العثماني! وفي مجال التحضير، أوفدت انجلترا أحد جواسيسها (ريتشارد وود) إلى لبنان، ليندس بين أهله، ويزرع الشقاق وهم المهيئين للثورة، ما جعلهم يبدأون هجماتهم المسلحة على قوات إبراهيم باشا، وامتدت الهجمات إلى سوريا، فازداد حرج موقف الجيش المصري. وفي أوائل أغسطس / آب ١٨٤٠، حاصر الأسطول الإنجليزي سواحل الشام ومصر، ووزع منشورات على أهالي سوريا ولبنان، تضمنت " حرص " انجلترا على طرد جيش إبراهيم باشا من هناك، فثار الأهالي ضد هذه القوات. فيما رفض محمد علي " معاهدة لندن "، يوم ١٨٤٠/٨/١٦، فطلب رفعت إلى مندوبي الدول الخمس القيام بهذه المهمة، ففعلوا، في اليوم التالي، لكن محمد علي كرر رفضه للمعاهدة، وإن عرض على رفعت إنهاء الخلاف بين محمد علي والسلطان العثماني، دون تدخل الدول الأجنبية، مقابل أن يحكم محمد علي سوريا، طوال حياته، بينما تُمنح له مصر، وراثيًا، لكن السلطان رد بإصدار فرمان، عزل بموجبه محمد علي من منصبه[١٨].

**هجمه الخلفاء:**

في سبتمبر/ أيلول١٨٤٠ دك الاسطول الانجليزى، بقيادة الادميرال استوبفورد (stopford)، بالاشتراك مع الكومدور شارك نابييه (napier) بيروت بالمدافع، وشاركت سفن نمساوية وعثمانية في هذا القصف. مازاد في تحرج موقف الجيش المصرى، خاصة بعد أن وزع الانجليز نحو ثلاثين ألف بندقية، سراً على الأهالي. وتدنت معنويات الجيش المصري، وتقطعت مواصلاته، فتوالت هزائمه، وأخلى المدن السورية، على التوالي في قتال مرتبك، أو حتى بدون قتال (بيروت / صور / صيدا /، يافا / الناصرة / طبرية / وصفد)، وقصفت السفن الحربية الانجليزية، في ١٠/٢٢، عكا، وهدمت جزءاً من تحصيناتها، واحتلت المدينه. واستسلمت الحامية المصرية في القدس، التي دخلها العثمانيون، في ١٢/٢٢. ونصب البدو والفلاحين الكمائن للقوات المصرية، المنسحبة، في غير انتظام [١٩].

في هذه الأثناء عرض الأمير بشير على الحلفاء الانضمام إليهم، لكنهم رفضوا عرضه، وأسروه ونفوه إلى مالطه. فيما استدارت فرنسا مائة وثمانين درجة، بعد أن أسهمت بقسط وافر في توريط محمد علي في رفض مطالب الحلفاء، والدخول معهم في مواجهة، تخلت عنه فرنسا فيها [٢٠].

وصل أسطول انجليزي بقيادة نابييه إلى الاسكندرية، لابتزاز محمد علي، فقبل محمد على الانسحاب من سوريا، مكتفيًا بحكم مصر، وراثياً. وفي

١١/٢٧ وقَّع وزير خارجية مصر، بوغوص بك، ونابييه اتفاقًا في هذا الصدد، لكن استوبفرود، وسفير إنجلترا في استانبول، دورد بونسنبني والسلطان العثماني رفضوا هذا الاتفاق، وإن ضرب رئيس وزراء انجلترا آنذاك، بالمرستون بمعارضتهم عرض الحائط، وأرسلت انجلترا، والنمسا، وبروسيا، وروسيا إلى الباب العالي (١٨٤١/١/٣٠)، طالبة إلغاء قرار عزل محمد علي، وتخويله حكم مصر الوراثي، فرضخ السلطان لمطلب هذه الدول [٢١].

فيما بين أواسط ديسمبر / كانون الأول ١٨٤٠ و١٩ فبراير / شباط ١٨٤١، أخلت القوات المصرية كل الأراضي السورية، ولكن بثمن باهظ، بسبب الجوع، والعطش، والكمائن التي نصبها الأهالي لتلك القوات، التي فقدت زهاء ثلاثين ألفًا من جنودها، خلال انسحابها، فيما وصل أربعون ألفًا، فقط، إلى مصر، حيث غادر إبراهيم غزة، بحرًا، في أوائل يناير / كانون الثاني ١٨٤٠، فيما لحق به من تبقى من جنوده، برًا، إلى مصر [٢٢].

بعد الانسحاب المصري، عجز العثمانيون عن السيطرة على المناطق الفلسطينية التي شهدت أعمالاً ثورية، فيما استبدت الخلافات العشائرية، خاصة بين قيس ويمن، بالمنطقة الجنوبية، مع هذا كله سلَّم العثمانيون إليهم أمور المنطقة: الشيخ مصطفى أبو غوش (يمن) لمنطقة القدس، وعبد الرحمن عمرو (قيس) لمنطقة الخليل، وتوالت الصدامات المسلحة بين جماعتي الشيخين. وهكذا لعب العثمانيون على التناقضات بين الشيوخ، وأخذوا يستميلون أحدهم، ويضربون به آخر. وهكذا وفق القاعدة

العتيدة المعروفة
" فرِّق تسد " [٢٣].

**تقييم المؤرخين:**

رجحت حسنات حمله ابراهيم على سيئاتها، باعتراف المؤرخين. ويعدد مؤرخ دمشقي معاصر تلك الحسنات، في وضع الحملة أصول الإدارة والجباية، ورفعها أيدى أرباب الإقطاعات وإعطائهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية، وبذلك رفعت سلطة المشايخ، والأمراء المستبدين[٢٤].

فيما رأى مؤرخ دمشقى آخر أن من فوائد حكم ابراهيم في سوريا تجفيفه المستنقعات، وتحديده الأسعار، والعدل بين الرعايا [٢٥]. أما مؤرخ مصري معاصر، فاستنتج بأن حكومة محمد على أثبت بأن " المصرى بل العربي، إذا تهيأ له زعيم عامل، لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته ". واستشهد المؤرخ نفسه بما ورد في رسالة قنصل انجلترا في دمشق إلى سفير دولته في الآستانة، حيث " عاد كثير إلى سكن المدن والقرى المهجورة، وإلى حراثة الأرض المهملة... [وأكره] العرب [يقصد البدو] على احترام سلطة الحكومة، وجعل السكان بمأمن من اعتدائهم ". وبحسن إدارة شريف باشا، تضاعف نجاح الأهلين، وحسنت المالية في هذه النواحي. كما أن نشاط ابراهيم، وحزمه وطَّد الأمن، ومد رواق الثقة، وقد عُدَّت الحكومة ظالمة... فأصحاب المقامات العالية، والأفندية، والأغوات (رؤساء الجند) امتعضوا كثيرًا من ذلك؛ لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة. والحرف، والطبقات العاملة.. وقد فرضت



obeikandl.com

الخدمة العسكرية على المسلمين، وهذا الأمر الجيد، كان ينبوع استياء عظيم. وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع، أخذت البلاد تترقى في مدارج النجاح والنماء، ولم يكد المصريون يخرجون من سوريا، حتى عاد القوم إلى نبذ الطاعة. وخلفت الرشوة، والتبذير في إدارة المالية، والاقتصاد، ومنيت المداخيل بالنقص، واستأنف البدو غاراتهم على الأهالي، فخلت القرى، والمزارع المأهولة، بالتدريج (٢٦). لذا كان طبيعياً أن يقرر المؤرخ الدمشقي المعاصر، في شبه يقين: " ولعل أبناء الشام أيقنوا بخطئهم في الانقضاض على الحكومة المصرية، التي هي مثلهم، عنصرًا ولغة، وعادات، وأنهم كانوا على ضلال في الحنين إلى حكم العثمانيين ". وامتدح المؤرخ نفسه " طريقة المصريين إلى المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة، والشدة في إنفاذ القوانين، وتقليد الغرب، في كل أمر جوهري " (٢٧). ورأى مؤرخ لبناني معاصر أن قيام الحملة في سوريا " مهد السبيل لنهضة علمية أدبية: لأن تنظيماتها استوجبت اختيار المتنورين لإدارة الإفرنج من مرسلين دينيين، وغيرهم، فأنشئت بواسطتهم المدارس، كما أن إرسال بعض الشبان لدرس الطب في القطر المصري، واستخدام بعض السوريين في حكومة محمد علي، أنشأ صلة أدب دائمة بين القطرين.. وأدخلت حكومة محمد علي روحًا إلى البلاد في أعمالها " (٢٨).

**استنتاجات:**

ماكان لحمله ابراهيم باشا على سوريا، ونحو تسع سنوات متصلة من الحكم المصري إلا أن تترك بصماتها على سوريا، وأهاليها، اقتصاديًا،

واجتماعيًا، وسياسيًا، وثقافيًا.

– ذلك أن الانهيار السريع للدفاعات العثمانيه أمام الهجمات المصريه، التي حققت انتصارات سريعة ورخيصة، وسهلة على العثمانيين، أسقط هيبة الأخيرين في نظر أهالي سوريا.

– كما أن إشراك السوريين في حكم أنفسهم تحت الحكم المصرى، حال دون تمكن العثمانيين من مواصلة إقصاء السوريين عن المشاركة في حكم أنفسهم، عندما عاد العثمانيون إلى سوريا. فقد جرَّب السوريون حلاوة الحكم الذاتي.

– ماحال دون تمكن العثمانيين من إعادة الأمور في سوريا إلى ما كانت عليه، عشية الحملة المصرية.

– ربما كان الأهم من هذا كله، وأحد أهم نتائجه، أن دفعات قد تلقتها بذرة الحركة الوطنية السورية، وإن بدأت هذه الحركة بالتعبير عن نفسها عبر تجليات فكرية، أولاً بسبب العسف العثماني لكل ما هو سياسي مباشر، ومن باب أولى لكل مقاومة سياسية. وثانيًا لأن الذين تصدروا الحركة الوطنية السورية كانوا من المثقفين، فيما كانت البورجوازية المنتجة في طورها الجنيني، وهي المؤهلة لتأسيس أحزاب سياسية، أكثر من غيرها من الطبقات، وقبلها، في آن.

– أما " العروبة " التي حاول محمد على وابراهيم أسباغها على محاولتهما بناء دولة قوية فمفتعلة ومحاولة لمد تجربتهما بالمسوِّغات. وبعد فما هي إلا سنوات، حتى انتشرت الجمعيات العربية المناهضة

للحكم العثماني، في سائر أنحاء سوريا. وكانت المنشورات التي وزعتها جمعية سرية عربية، في بيروت، سنة ١٨٧٥، إشارة البدء في مسيرة الاستقلال، والحرية، ومحاولة اللحاق بالعصر.

* * *

obeikandl.com

# مراجع الفصل الحادي والعشرون

(١) بيتر مانسرفيلد، **تاريخ مصر الحديث والشرق الاوسط**، ترجمه عبد الحميد فهمى الحجلى، سلسله، تاريخ المصريين(٩١)، القاهره، الهيئه المصريه العامه للكتاب، ١٩٩٥، ص ٨٧ - ٨٨.

(*) لمزيد من التفاصيل حول منبحة القلعة هذه، يمكن الرجوع إلى:

عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ١١٢ - ١١٨.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٩٥ - ٩٧.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، **عصر محمد على**، القاهره، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ١٢٣ - ١٢٥.

(٤) مانسفيلد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٢١ - ٢٦١.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٦) الرافعي، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٢١ - ٢٦١.

(٧) للاطلاع على وصف مقتضب للمعارك الحربيه، يمكن العودة إلى: **المصدر نفسه**، ص٢٢٧ - ٢٥٣.

- الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: وعبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢)، ص ٨٥٨.

(٨) الرافعي، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥٢ - ٢٦١.

(٩) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى:

- أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد على باشا**، خمسه أجزاء، بيروت المطبعة الأمريكية، ١٩٣٠ - ١٩٣٤.

ميخائيل مشاقه، **مشهد العيان بحوادث سوريه ولبنان**، نشره محلم خليل عبده، وأندراوس حنا شخاشيرك، القاهرة، ١٩٠٨، ص١١٠ - ١١١.

(١٠) سليمان بك أبو عز الدين، **ابراهيم باشا في سوريا**، وبيروت المطبعة العلمية، ١٩٢٩، ص١٣٩.

(١١) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٦٣ - ٢٦٧.

(*) من بقايا العصابات القبلية القديمة، التي وفدت من الجزيرة العربية، وقد كان ليمن راية بيضاء، مقابل راية حمراء لقيس. وقد حكمت الخصومة الشديدة علاقة الطرفين ببعضهما البعض.

(١٢) **المصدر نفسه**، الصفحه نفسها.
(١٣) **المصدر نفسه**، ص٢٦٩ - ٢٧٠.
(**) من بينهم الشيخ قاسم الأحمد، وولداه يوسف ومحمد، وشيخ دورا - الخليل، علي رباح، وشيخ بني زيد، عبد الجبار أبو صالح، وشيخ عشيرة المجالي في الكرك، اسماعيل المجالي.
الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، بيروت ١٩٩٠، ص ٨٦٠.
(١٤) **المصدر نفسه**، ص٨٦٠.
(١٥) **المصدر نفسه**، ص٢٧١ - ٢٧٣.
(١٦) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٧٤ - ٢٧٥.
(١٧) **المصدر نفسه**، ص٢٧٦ - ٢٨٧.
(١٨) **المصدر نفسه**، ص٢٩٠ - ٣٠٠.
(١٩) الموسوعه الفلسطنيته، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٦٠.
(٢٠) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٠٣.
(٢١) **المصدر نفسه**، ص٣٠٤ - ٣٠٦.
(٢٢) **المصدر نفسه**، ص٣٠٧ - ٣٠٨.
(٢٣) الموسوعه الفلسطنيه، **مصدر سبق ذكره**، ص٨٦٠.
(٢٤) محمد كرد على، **خطط الشام**، جـ٣، دمشق، ١٩٢٥، ص٦٦.
(٢٥) مشاقه، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠٣.
(٢٦) الرافعى، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٠٩ - ٣١٠.
(٢٧) علي، **مصدر سبق ذكره**، جـ٣، ص٧٠.
(٢٨) أبو عز الدين، **مصدر سبق ذكره**، ص٣١٥.

* * *



obeikandl.com